# الديـن من منظور سوسيولوجي

الأستاذ الدكتور : صـالح فيلالـي

جامعة الشارقة ، الإمارات العربية المتحدة

**الملخّص:**

هدفت هذه الدراسة الى بحث العلاقة بين الدين والمجتمع وتبيان أهمية الدين في حياة الأفراد والجماعات. استعرض المقال في البداية المفاهيم السوسيولوجية للدين من وجهات نظرمختلفة كالتطورية، الماركسية، الوظيفية والفيبيرية، مبيناً أوجه التشابه والاختلاف بينها من حيث التعريف والمعالجة المنهجية. كما ناقش المقال أيضا العلاقة بين الدين والعلمانية في المجتمعات الغربية من جهة، وعلم اجتماع المعرفة من جهة ثانية، وخلص إلى القول بأن هناك عودة صريحة إلى الممارسات الدينية في تلك المجتمعات التى يعتقد البعض أنها وسيلة للتخلص من بعض الإفرازات السلبية لتطور الحضارة الغربية، خاصة فيما يتعلق بالمسائل الأخلاقية والانحرافات الاجتماعية التى بدأت تنخر جسم المجتمعات الغربية.

**Abstract:**

The aim of this article is to examine the relationship between religion and society and to demonstrate the importance of religion in people’s lives . It viewed initially the main definitions of the concept of religion and analyzed in detail the religious phenomenon from different sociological perspectives. The article also discussed the relationship between religion and secularism in western society and showed that there is an explicit return to religious practices in those societies which some believe it is a way to get rid of some of the negative secretions of the evolution of western civilization, especially those related to moral deviations and social ills.

The article also discussed the relationship between religion and sociology of knowledge.

**مقدّمة:**

يتناول هذا المقال بالدراسة والتحليل العلاقة الجدلية بين الدين والمجتمع وذلك من خلال وجهات نظر سوسيولوجية مختلفة. يتعرض في البداية إلى مناقشة مسألة الدين من حيث المفهوم والتعريف والوظيفة الاجتماعية والإيديولوجية.

أما المحور الثاني فيركز بشكل أساسي على تفسير الظاهرة الدينية وعلاقتها بالمجتمع انطلاقا من وجهتي النظر التطورية والوظيفية، حيث تهتم الأولى بمسألة النشأة والتطور وتبحث الثانية في الدور الذي يقوم به الدين في إشباع الحاجات الأساسية للمجتمع بما في ذلك حاجته إلى التضامن و الانسجام والتكامل بين أجزائه.

أما المحور الثالث، والذي هو تكملة للمحور الثاني فيناقش العلاقة بين الدين والتغير الاجتماعي من وجهة النظر الفيبيرية التي جاءت كرد فعل على موقف الماركسية من الدين. في حين يحلل المحور الرابع إشكالية العلاقة بين الدين والعلمانية في المجتمعات الغربية، مبينا في ذات الوقت أنه على الرغم من أن هذه الأخيرة تسير نحو العلمانية إلا أن الدين لازال يطبع الكثير من ذهنيات شعوبها. أما المحور الخامس والأخير من هذا المقال فيعالج العلاقة بين الدين وعلم اجتماع المعرفة على اعتبار أن الدين يمثل جزءا من المجال الواسع لهذا الأخير الذي يهتم بمعاني ومفاهيم الواقع التي يحملها أعضاء المجتمع بما في ذلك الدين نفسه.

**1.الديـن: المفهـوم والتعريـف**

يمكن القول بأن الدين هو نظام عقيدة حول مكانة الفرد في العالم، موفرا نظاما لهذا العالم ومبررا وجوده به. والدين كنظام عقيدة له تأثير عام على المجتمعات وذلك من خلال الأثر الذي يحدثه في المؤسسات الاجتماعية الغير دينية مثل الأسرة وحياة الناس بصفة عامة. وغني عن البيان أن الديانات الكبيرة مثل المسيحية والإسلام والهندوسية والبوذية تتضمن معتقدات وقيم حول هذا العالم، بغض النظر عما تقوله كل ديانة حول العالم الآخر.

يلاحظ أنه مع مطلع القرن الثامن عشر بدأ الفلاسفة والمنظرون السياسيون يبحثون بجدية في المعتقدات الدينية للشعوب وذلك من خلال تحليلهم للمذاهب اللاهوتية، خاصة فيما يتعلق بوجود الله متقبلين لبعض المذاهب ورافضين أو معدلين للبعض الآخر، معتبرين الدين كعامل تدعيم للمعنويات، وفي نفس الوقت تأسفوا لوجود ظاهرة التعصب الدين[1].

لقد اعتقد الباحثون حينها أن الناس في حاجة إلى الدين الذي يعطي معنى لوجودهم في هذا العالم وهو معنى يجعلهم يختلفون عن بقية المخلوقات الأخرى. وبالتالي الوعي بأنفسهم ككائنات منتهية في عالم غير منتهى.

يقول Pascal إن حاجة الإنسان إلى الدين لا يستطيع العلم إشباعها، وفي اعتقاده أن الديانة المسيحية في شكلها الكاثوليكي هي وحدها القادرة على إشباع هذه الحاجة. وهناك آثار لهذه الفكرة الدينية عند Rousseau الذي يرى أن الدين لا يزود الناس فقط بحوافز من أجل أن يسلكوا سلوكا حسنا أو يتجمعوا معا في جماعة دينية أو من أجل تقويتهم عندما يتألمون، بل إنه يزودهم أيضا بمفهوم مكانهم في هذا العالم الذي يجعل الحياة سعيدة. لقد تحدث Rousseau عن الدين بطريقة يفهم منها أن حاجة الإنسان إليه هي أعمق من حاجته إلى العلم[2].

إن ما يهم علماء الاجتماع والمنظرون الاجتماعيون هو تأثير المعتقدات الدينية على النشاطات الثقافية والاجتماعية والسياسية و الاقتصادية للجماعات المختلفة من الناس. في هذا الإطار يمكن اعتبار الدين كجزء من المجال الأيديولوجي للمجتمع، خاصة إذا كان يعمل للحفاظ على الترتيبات السياسية والثقافية والاقتصادية السائدة في المجتمع. وحسب Bocock.R. أن الطريقة التي يعمل بها الدين في هذا الاتجاه قد تكون مباشرة أو غير مباشرة، ففي الحالة الأولى يتم إقناع الناس بأن النظام السياسي و الاقتصادي السائد هو منزل من عند الله وأن أية محاولة لتغييره تعتبر إثما أو ذنبا كبيرا. أما في الحالة الثانية فالدين عادة ما يوفر لأولئك الذين يعانون من مشاق الحياة الأمل في مستقبل أحسن سواء كان

ذلك في الدنيا أو في الآخيرة. وبهذه الطريقة يمكن للدين أن يلعب دورا هاما في المحافظة على البناء الاجتماعي السائد[3].

ويفهم من ذلك أن الدين يشجع الإبقاء على الأمر الواقع، ويحدث هذا في الحالات التي يتعرض فيها النظام الاجتماعي إلى غزو أيديولوجي من الداخل أو من الخارج قد يهدد استمرار وجوده، وكمثال على ذلك الدور الذي لعبته الكنيسة في المجتمع الرأسمالي ضد انتشار المد الشيوعي. ونفس الشيء يمكن أن يقال عن الدور الذي لعبه الإسلام في محاربة الماركسية والماركسين في البلدان الإسلامية.

لكن ما يجب ملاحظته هو أن الدين لا يلعب في كل الحالات دور المدافع عن شرعية النظام الاجتماعي السائد. إنما حدث في إيران وأفغانستان ويحدث حاليا في أماكن مختلفة من العالم الإسلامي يبين بوضوح أن الدين يمكن أن يستعمل لتحطيم أو حماية النظام الاجتماعي القائم. في هذا السياق يقول S.Hall فالدين كأيديولوجية ليس مستقلا عن السياقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي يعمل ضمنها، إنه يعبر عن بعض المصالح ويستعمل لإضفاء الشرعية على بناء نظام سلطة معينة والدفاع عن نظام اجتماعي معين. لكنه يمكن أن يستعمل أيضا لمعارضة تلك الأنظمة والبناءات السياسية السائدة في المجتمع. ويصبح ذلك مرتبطا ببعض الجماعات والطبقات الاجتماعية التي تستعمل الدين لمساعدتها على الاحتفاظ بسيطرتها وامتيازاتها، أو قد يستعمل من طرف البعض الآخر لمكافحة الحالات السابقة. وهذه نقطة هامة جدا لأنها تكشف عن أهمية الدين في الإطار الواسع لمسألة الأيديولوجية الرسمية السائدة في المجتمع.

### 2.الديـن من وجهـة النظـر الماركسيـة:

وفقا لماركس الدين وهم يسكن الألم الناتج عن الاستغلال والاضطهاد، وهو يستلزم مجموعة من الخرافات التي تبرز شرعية الطبقة الحاكمة وحقها في الامتيازات التي تتمتع بها، وفي نفس الوقت يكرس واقع الطبقة المحكومة كأمر حتمي لا مجال لمناقشته أو تغييره. وبناء على ذلك يعتبر الدين من وجهة النظر الماركسية أداة من أدوات الرقابة الاجتماعية التي تحافظ على استمرارية النظام الاستغلالي وتعزيز العلاقات الطبقية السائدة به، بمعنى أن الدين يبقى الناس في أماكنهم بتوفير وهم من الأمل في وضعية لا أمل فيها.كما أنه قد يساهم أيضا في تعزيز الوعي الطبقي الزائف الذي يخفي الوضعية الحقيقية لأعضاء الطبقة المضطهدة وكذا مصالحها الحيوية(4).

ومن جهة ثانية فالأدلة المتعارضة توحي بأن وجهة النظر الماركسية حول وظيفة الدين يجب أن تحدد بفترات زمنية وبأماكن معينة لأن الدين لا يشجع في كل الحالات النظام السائد. بالتأكيد أن وجهة النظر الماركسية حول الدين لا تعكس الوضع في إيران وبعض البلدان الإسلامية الأخرى خاصة في السنوات الأخيرة التي شهدت ظهور حركات دينية متطرفة تعمل على الإطاحة بأنظمة مجتمعاتها على أمل أن تقيم بدلها نظاما إسلاميا. ويعود السبب في ذلك إلى فشل الأنظمة الحاكمة في تجاوز عقبات التنمية بما في ذلك إخفاقها في توفير الشروط الضرورية للنهوض بمجتمعاتها.

### 3.الديـن من وجهـة النظـر التطوريـة:

لقد اهتم علم الاجتماع الديني في القرن التاسع عشر بالبحث عن إجابة للسؤلين التاليين: كيف نشأ الدين؟ وكيف تطور؟ وكان المنهج التطوري حينذاك قد تأثر بكتاب داروين حول أصل الأنواع الذي نشر سنة 1859. وانطلاقا من ذلك حاول علماء الاجتماع تفسير أصل وتطور المؤسسات الاجتماعية. وفيما يتعلق بالدين حاول التطوريون أمثال Edward B. Tylor و F. Max Muller

تفسير الدين انطلاقا من حاجات الإنسان. فرأى تايلور الدين كاستجابة لحاجات الإنسان الفكرية وأعتبره ميلركوسيه لإشباع حاجات الإنسان العاطفية.

كما اهتم أيضا بالطريقة التي يؤثر بها الدين في المجتمع عن طريق ممارسة الطقوس الدينية، ففي اعتقاده أن الناس يواجهون مشاكل الحياة والموت وكذلك النجاح والإخفاق وهم يرون أن مثل هذه الأشياء لها علاقة بدينهم، ولدى نراهم يلجؤن إلى ممارسة الشعائر الدينية عساها أن تساعدهم على مكافحة الخوف والقلق، كما أنها تساعدهم أيضا على خلق جو من الابتهاج والسعادة(5).

وقد نتج عن النظرية التطورية لداروين ظهور نظريتان حول تفسير الظاهرة الدينية وهما: الروحانوية Animism، والطبيعوية Naturism وتعني الأولى الإيمان بالأرواح. وحسب تايلور يعتبر هذا النوع من الاعتقاد الشكل المبكر للدين، ويرى بأن الروحانوية جاءت نتيجة لمحاولات الإنسان الإجابة عن السؤالين التاليين:

1. ما هو الفرق بين جسد حي وآخر ميت؟
2. ما هي تلك الأشكال التي تبدو للإنسان في أحلامه وتخيلاته؟

ومن أجل جعل معني لهذه الأحداث اخترع الفلاسفة فكرة الروح the soul و هي روح تسكن الجسد مؤقتا أثناء الأحلام و التخيلات و تسكنه بصفة دائمة بعد الموت. و قد طبقت فكرة الأرواح ليس على الإنسان فحسب بل على الكثير من المظاهر الطبيعية و المحيط الاجتماعي (حتى الحيوانات مسكونة بالأرواح). و يرى تايلور بأن النظرية الروحانية Animism جاءت لتشبع طبيعة الفكر الإنساني و حاجته لإيجاد معنى للموت و الأحلام و التصورات و التخيلات.

أما النظرية الطبيعوية Natirism. فتعتقد بأن قوى الطبيعة The Forces of nature لها قوة خارقة للعادة.و يرىMuller أيضا أن ذلك قد يكون الشكل المبكر للدين، و يعتقد بأن الطبيعوية جاءت نتيجة لتجربة الإنسان مع الطبيعة و

أثرها على أحاسيسه، فالطبيعة تحتوي على مفاجآت و رعب وعجائب ومعجزات مثل البراكين والرعد والبرق. وخشية من قوة الطبيعة وسحرها حول الإنسان الأول القوى المجردة إلى قوى ذاتية، بمعنى أن الإنسان شخص الطبيعة، فقوة الريح أصبحت تسمى بروح الريح، وقوة الشمس أصبحت تسمى بروح الشمس... الخ.

انطلاقا من البحث في أصل الدين تحول علماء الاجتماع في القرن التاسع عشر إلى البحث في مسألة تطور الدين. وفي هذا الإطار ثم تطوير مجموعة من المناهج. ومن بين الذين اهتموا بظاهرة تطورا الدين نذكر Tylor الذي يرى بأن المجتمع الإنساني قد مر بمراحل مختلفة مبتديا بأعمال الصيد البسيطة و منتهيا بالدولة – الأمة المعقدة. وبنفس الطريقة تم تطور الدين، فالروحانوية التي تؤمن بتعدد الأرواح شكلت دين المجتمعات البسيطة، في حين أن التوحيدية Monotheism التي تؤمن بوجود إله واحد شكلت الدين الأكثر تعقيدًا. ويردى تايلور أن تطور كل مرحلة من مراحل الدين قد تولدت عن المرحلة السابقة لها، وبالتالي فإن ديانة الإنسان الحديث ما هي إلا نتيجة لتطور النظام الديني البسيط الذي عرفه الإنسان منذ القدم.

وهناك انتقادات كثيرة وجهت للمنهج التطوري المستعمل في تفسير أصل وتطور الدين. ومن تلك الانتقادات أن أصل الدين قد ضاع في الماضي البعيد. لأن أول مؤشر على إمكانية التعرف على الاعتقاد في قوى الطبيعة الخارقة للعادة يعود فقط إلى حوالي ستين ألف سنة مضت كما أوضحت ذلك الدراسات الأثرية. ولذا فإن النظريات التي تتحدث عن أصل الدين يمكن أن تبنى فقط على التأملات و التخمينات العقلانية(7).

### 4.الديـن من وجهـة النظـر الوظيفيـة:

إذا كانت النظرية التطورية قد فسرت تطور الدين وفقا لتطور حاجات الإنسان فإن النظرية الوظيفية قد غيرت التركيز من الاهتمام بحاجات الإنسان إلى الاهتمام بحاجات المجتمع، فالتحليل الوظيفي اهتم بالدرجة الأولى بمساهمة الدين في إشباع الحاجات الأساسية للمجتمع. ومن وجهة النظر هذه فالمجتمع يتطلب درجة معينة من التضامن الاجتماعي بالإضافة إلى الانسجام والتكامل بين أجزائه. وعليه فإن مهمة الدين تكمن في إشباع المتطلبات الوظيفية للمجتمع كمساهمته مثلا في التضامن الاجتماعي. ومن علماء الاجتماع الذين اهتموا بهذا الاتجاه نذكر ما يلي:

#### 4. 1 إميـل دوركايـم

في كتابة الأشكال الدينية للحياة البدائية الذي طبع عام 1912 قدم دوركايم ما يمكن اعتباره التفسير الأكثر تأثيرا للدين من وجهة النظر الوظيفية. يقول دوركايم كل المجتمعات تقسم العالم إلى قسمين: الديني والدنيوي.

والدين مبني على أساس هذا التقسيم،فهو نظام موحد للمعتقدات والممارسات التي لها علاقة بالأشياء الدينية المقدسة ومن ثم فالدين يستلزم في المقام الأول وجود المقدس وبعده تنظيم المعتقدات وأخيرا ممارسة الطقوس التي تنبثق من مجموعة المعتقدات. حاول دوركايم أن يكشف عن التباين بين العلم الحقيقي للدين والعلوم الأخرى الزائفة التي عملت على إبطاله و الحط من قيمته، فكتب يقول:

إن تلك الأنظمة من الأفكار مثل الدين التي كان لها مكانا هاما في التاريخ والتي لجأ إليها الناس في كل العصور لتمدهم بالطاقة التي يحتاجونها في حياتهم لا يمكن اعتبارها مجرد نسيج من الأوهام. وعموما فالمعترف به اليوم هو أن القانون والفضيلة وحتى الفكر العلمي نفسه كلهم ولدوا في أحشاء الدين، كانوا لمدة طويلة من الزمن متطابقين معه وتشربوا من روحه(7).

درس دوركايم الديانات المختلفة للقبائل الإسترالية وقال بأن دين هذه القبائل- الطوطمية Totemism – يمثل الشكل الأكثر بساطة للدين. فالمجتمع الأبوريجيني Aborigine ينقسم إلى مجموعة من العشائر Clans، وكل عشيرة لها طوطمها Totem وهو عادة ما يكون عبارة عن حيوان أو شجرة يمثل رمز العشيرة في شكل راية وهو الإشارة التي تتميز بها العشيرة عن بقية العشائر الأخرى.

وفي الحقيقة أن الطوطم هو أكثر من ذلك لأنه الرمز الأكثر قداسة في عبادة Aborigine ويرى دوركايم أن تقديس الفرد لرمز القبيلة يعني بطريقة ضمنية تقديسه لمجتمع القبيلة لأن المجتمع أكثر قوة وأهمية من الفرد. و يلخص إلي القول بأن الحياة الاجتماعية غير ممكنة بدون وجود القيم المشتركة و المعتقدات الأخلاقية التي تشكل الضمير الجمعي، و في غياب ذلك لا يمكن أن يكون هناك تضامن اجتماعي ولا رقابة اجتماعية ولا تعاون أو تضامن اجتماعي.

باختصار لا يمكن أن يكون هناك مجتمع.فالدين يقوى ويعزز الضمير الجمعي، كما أن عبادة المجتمع تعزز القيم والمعتقدات الأخلاقية التي تشكل أساس الحياة الاجتماعية. و لذا يؤكد دروكايم على العبادة الجماعية التي يعبر فيها أعضاء المجتمع عن إيمانهم المشترك بالقيم والمعتقدات، ففي الجو المشحون للعبادة الجماعية تعزيزا وتقوية لتكامل المجتمع [(8)].

وفي اعتقاده أنه لا يوجد هناك مجتمع لا يشعر بالحاجة إلى الدعم والمساندة وإلى وجدان وأفكار جماعية تعطيه وحدته و شخصيته المميزة. و يرى دوركايم أن إعادة هذا البناء المعنوي لا يمكن إنجازه إلا بواسطة جمع الشمل وإقامة الصلوات الجماعية التي يجتمع فيها الأفراد مع بعضهم البعض قصد إعادة تثبيت عواطفهم المشتركة. ومن هنا برزت الاحتفالات الأخرى التي لا تختلف كثيرا عن الاحتفالات الدينية سواء في أهدافها أو في الطريقة المتبعة للوصول إلى تحقيق تلك الأهداف[(9)].

و حسب دوركايم أنه ليس من السهل أن نتصور أن الوصول إلى حالة الإثارة في الأعياد و المناسبات الدينية يجعل الإنسان لا يعرف نفسه ويشعر بأنه مقاد من طرف قوة خارجية تجعله يفكر ويعمل على غير عادته (10).

ويرى بعض النقاد أنه على الرغم من أن أفكار دوركايم لا زالت لها قيمتها العلمية إلا أنه كان مبالغ في تحليلاته خاصة عندما قال بأن الدين هو عبادة المجتمع، فوجهة نظر دوركايم إلى الدين كانت مبنية على أساس دراسته لمجتمع صغير يتميز بالأمية والبساطة، و بالتالي يمكن تعميمها على المجتمعات الحديثة التي توجد بها كثير من الثقافات الفرعية والجماعات الاجتماعية والعرقية، بالإضافة إلى وجود المنظمات المتخصصة وعدد كبير من الديانات والمعتقدات والمؤسسات(11).

**4. 2 برونيسلاو مالينوسكي** Bronislaw Malinowski

إن الطريقة التي اتبعها Malinowski في دراسته للدين كانت شبيهة بتلك التي اتبعها دوركايم, إذ أنه اعتمد على معلومات أخذت من مجتمعات صغيرة غير متعلمة قصد البرهنة عن أطروحته حول الدين. فالكثير من الأمثلة التي جاء بها مأخودة من مجال بحث قام به في جزر الأطروبيريانيةTrobrian Islands المقابلة لساحل غينيا الجديدة.

و يتفق Malinowski مع دوركايم في أن الدين يدعم المعايير والقيم الاجتماعية ويعزز التضامن الاجتماعي، لكنه يختلف معه حول كون الدين يمثل الصورة العاكسة للمجتمع ككل، كما أنه لا يرى بأن الشعيرة الدينية هي عبادة المجتمع في حد ذاته. بالنسبة لـ Malinowski هناك مجالات معينة في الحياة الاجتماعية يهتم بها الدين، وتكمن هذه المجالات في الضغط المثير للعاطفة الذي يهدد التضامن الاجتماعي. فالقلق والتوتر مثلا قد يؤديان إلى تمزق أو اضطراب المجتمع.

ومن الحالات التي تنتج القلق والانفعالات المضطربة يمكن ذكر أزمات الحياة مثل الولادة والبلوغ والزواج والموت. ولاحظMalinowski أنه في كل المجتمعات تحاط هذه الأزمات( أزمات الحياة الاجتماعية) بطقوس أو شعائر دينية، ويرى بأن الموت هي الأكثر تمزيقا في هذه الأحداث مشيرا إلى أن وجود روابط شخصية قوية من جهة وحقيقة الموت من جهة أخرى هما الأكثر إزعاجا وتشويشا لحسابات الإنسان، الأمر الذي جعلهما يشكلان الأسس الرئيسية للمعتقدات الدينية.

فمراسيم الجنازة تعبر عن الاعتقاد في البقاء أو الخلود الذي ينفي حقيقة الموت. وفي نفس الوقت يتم فيها تعزية ومواساة أهل الميت، وهناك من يشجع أهل الميت بحضورهم للجنازة. إن مثل هذا التشجيع وهذه المواساة يكبحان الانفعالات التي تحدثها الموت، وفي نفس الوقت يراقبان القلق والضغط النفسي اللذان قد يمزقا المجتمع، فالموت تمزق المجتمع ما دامت أنها تفقده أحد أعضائه.

ففي مراسيم الجنازة تتحد الجماعة الاجتماعية وتشجع أهل الميت. إن هذا التعبير عن التضامن الاجتماعي يعيد توحيد أجزاء المجتمع، وحسبMalinowski هناك حالات أخرى قد تكون مصدرا للقلق والتوتر، الأمر الذي يجعلها محاطة بالطقوس. إن عملية اصطياد السمك مثلا عملية هامة جدا بالنسبة لسكان جزر Trobrian لأنها تمثل مورد رزق لهم ولاحظ بأن القيام بهذه العملية سهل جدا في المياه الراكدة بالبحيرات الضحلة لأنها تعطي نتائج مثمرة وبدون أي خطر يذكر، في حين أن اصطياد السمك في البحر يحمل مخاطر و شكوك كبيرة، إذ قد تتسبب عاصفة هو جاء في فقدان الحياة، كما أن الصيد يتوقف على وجود قطيع أو أسراب من السمك وهو شئ لا يمكن التكهن به. ويضيف Malinowski قائلا: في المياه الراكدة أين يمكن للإنسان أن يعتمد كلية على معرفته ومهارته لا توجد هناك طقوس متعلقة بصيد السمك، في حين أن الاصطياد في مياه البحر المفتوحة عادة ما يسبق بإجراءات طقوسية وذلك من أجل ضمان صيد وفير من جهة وحماية الصيادين من الأخطار من جهة ثانية.

على الرغم من أن Malinowski اعتبر هذه الطقوس بمثابة سحر فقد اعتبرها البعض الآخر كممارسات دينية معقولة، ويستنتج من ذلك أن الطقوس عادة ما توجه إلى الحالات الخاصة التي تولد القلق والتوتر قصد التقليل من حدتها وذلك عن طريق تزويد الممارسين لها بالثقة والإحساس بالمراقبة. وكما هو الحال بالنسبة لمراسيم الجنازة تعتبر طقوس اصطياد السمك كوقائع اجتماعية. إن مساهمة Malinowski في علم الاجتماع الديني تكمن في أطروحته القائلة بأن الدين يعزز التضامن الاجتماعي وذلك من خلال تعامله مع ضبط الأحاسيس التي تهدد استقرار المجتمع[(12)].

### 4. 3 تالكوت بارسونز Talcott Parson

يرى بارسونز أن الفعل الإنساني موجه ومراقب بواسطة معايير زوده بها النظام الاجتماعي، فالنظام الثقافي مثلا يوفر توجيهات عامة للفعل في شكل معتقدات وقيم ومنظومة من المعاني. فالمعايير التي توجه الفعل ليست مجرد مقاييس معزولة عن السلوك بل إنها محددة ومندمجة بواسطة القيم والمعتقدات التي يوفرها النظام الثقافي.

مثلا الكثير من المعايير في المجتمع الغربي هي تعابير عن القيم المادية. ويعتبر الدين جزءا من النظام الثقافي، وهو بهذا المعنى يزود فعل الإنسان بتوجيهات ومقاييس تحول دون تصرفه خارجها. بتأسيسه لمعتقدات أخلاقية ومبادئ عامة فالدين يساعد على الإجماع الذي يعتقد بارسونز أنه ضروري للنظام والاستقرار في المجتمع.

على غرار ما قاله Malinowski، يرى بارسونز أن الدين موجة إلى المشاكل الاجتماعية الخاصة التي تحدث في كل المجتمعات. إن الناس في حياتهم اليومية عادة ما يذهبون إلى أعمالهم بدون توتر خاص، ولو كانت الحياة دائما بهذا الشكل فالدين سيفقد لا محالة أهميته في المجتمع. لكن الحياة ليست دائما سهلة، فالمشاكل التي تمزق الحياة تنقسم إلى صنفين: الأول يكمن في أن الناس يصابون

بأحداث لا يستطيعون التنبؤ بها أو التحضير لها أو مراقبتها. ومن تلك الأحداث مسألة الموت، خاصة إذا كانت مبكرة.

فعلي غرار ما قاله Malinowski ولنفس الأسباب يعتبر بارسونز الدين كآلية Mechanism لضبط مثل تلك الأحداث وفي نفس الوقت هو وسيلة لاسترجاع النمط العادي للحياة. أما المشكل الثاني فيتعلق بمسألة الشك، وهذا يعود إلى المحاولات التي تبذل فيها مجهودات كبيرة لكنها غير مضمونة النتائج، لأن هناك عوامل غير معروفة أو لا يمكن مراقبتها. ومثالا على ذلك عدم قدرة الإنسان على توقع أو مراقبة أثر المناخ على الفلاحة.

حسب بارسونز الدين يوفر وسائل الضبط ويأتي بعبارات لتلك الحالات التي يتعرض لها الناس وذلك من خلال الطقوس التي تعمل كمقوّ للثقة بالنفس. وبهذه الطريقة يحافظ الدين على التضامن الاجتماعي، وفي نفس الوقت يجنب النظام الاجتماعي من الانزلاق نحو التمزق. وباعتبارها جزءا من النظام الثقافي فالمعتقدات الدينية تعطي للحياة معنى إنها تجيب عن تساؤلات الإنسان حول نفسه وحول العالم الذي يعيش فيه. فوظيفة الدين لها أهمية خاصة بالنسبة للإحباطات التي يتعرض لها الناس والتي تهدد بتحطيم المعتقدات التي يؤمن بها الإنسان في حياته، وبالتالي جعل وجوده بدون معنى.

إن الحياة الاجتماعية مملوءة بالمتناقضات التي تهدد المعنى الذي يضعه الإنسان في الحياة. ويرى بارسونز أن واحدة من أهم الوظائف التي يؤديها الدين هي جعل معنى لكل تجارب الإنسان بغض النظر عن كونها متناقضة أو ليست ذات معنى، وكمثال على ذلك مسألة المعاناة لماذا يجب على الناس تحمل الحرمان والآلام وبالتالي ألا مساواة وكل ما يمكن توقعه؟ فالدين يوفر مجموعة من الإجابات عن هذا السؤال وهي كما يلي:

المعاناة مفروضة من الله أو مقدرة من عند الله لاختبار إيمان الإنسان، إنها عقوبة للآثام المرتكبة. المعاناة مع الصبر عليها سوف تحمل مكافأتها في الجنة. وهكذا فالمعاناة تصبح ذات معنى أو هدف، إن مشكلة الشر هي مسألة مشتركة

بين جميع المجتمعات وتصبح عملية محبطة عندما ينتفع الناس من أعمالهم الشريرة. فالدين يحل هذا التناقض عندما ينص على أن مرتكب الشر سوف يلقي جزاءه في الدنيا أو في الآخرة. إن مثل هذا الضبط يعزز النظام الاجتماعي والاستقرار في المجتمع.

وخلاصة القول أن الوظيفية تؤكد على المساهمات الإيجابية للدين في المجتمع وتميل إلى إهمال مظاهر اختلالها الوظيفي. إن اهتمام الوظيفية بالاندماج والتضامن والانسجام جعلها تهمل الكثير من الحالات التي يمكن أن تكون كقوة مسببة للخلاف والشقاق.

بتجنبها للأمثلة المتكررة لانقسامات الداخلية ضمن المجتمع الواحد حول مسائل العبادة والعقيدة الدينية، وهو انقسام قد يؤدي إلى صراع مفتوح تعطي الوظيفية أهمية قليلة للعداء بين الجماعات الدينية المختلفة داخل نفس المجتمع كما هو الحال الآن بالنسبة للكاثوليك والبروتيستان في إيرلندا الشمالية ففي مثل هذه الحالات يشكل الدين تهديدا مباشرا للنظام الاجتماعي. ولذا يمكن القول أن الدين بمقدر ما يعمل على التكامل بقدر ما يعمل أيضا على الانقسام، فتاريخ المسيحية بانشقاقاتها الكثيرة يظهر بوضوح قوة الدين الكبيرة ليس فقط في التماسك والانسجام بل أيضا في التفرقة والانقسام(13).ونفس الشيء يمكن أن يقال الآن عن ما حدث ويحدث في الكثير من البلدان الإسلامية.

**5.الديـن و التغير الاجتماعي من وجهـة النظـر الفيبيريـة:**

وفقا لوجهة النظر الماركسية يعتبر الدين جزء من البناء الفوقي للمجتمع، وهو في النهاية انعكاس للبناء التحتي.وانطلاقا من ذلك فالتغيرات التي تحدث في قوى الإنتاج تؤدي بالضرورة إلى إحداث تغيير في المعتقدات والممارسات الدينية. إلا أن ماكس ڤيبر يقلل من أهمية العوامل الاقتصادية في تشكيل الدين ويقيدها بأماكن وفترات زمنية محددة، موضحا أن ذلك لا يحدث في كل الحالات. وهذا يعني أن المعتقدات الدينية قد تكون أكثر تأثيرا على السلوك الاقتصادي وتؤكد نظرية الفعل الاجتماعي عند ماكس ڤيبر على أن فعل الإنسان موجه بواسطة

مجموعة من المعاني يكونها الإنسان عن العالم الذي يعيش فيه، وبالتالي فإن فهم الفعل الاجتماعي مرتبط بفهم صور المعاني التي يحملها أعضاء المجتمع، ويدخل الدين ضمن تلك المعاني الموجهة للسلوك الإنساني بما في ذلك السلوك الاقتصادي. بعبارة أدق أن المعتقدات الدينية يمكن أن توجه الفعل الاقتصادي.

في كتابة الأكثر شهرة (الأخلاق البروتيستانية وروح الرأسمالية)، يحلل ماكس قيبر العلاقة بين ظهور بعض أشكال البروتيستانية وتطور الرأسمالية الغربية، موضحا بأن جوهر الرأسمالية هو السعي وراء الربح و الربح المتجدد باستمرار. فالمؤسسات تحسب فيها التكاليف وتوقع الأرباح بحذر وبدقة متناهيتين. ويوجد من وراء الممارسة الرأسمالية ما يسميه قيبر بروح الرأسمالية وهي عبارة عن مجموعة من الأفكار والأخلاقيات والقيم.

وفي توضيحه لمفهوم روح الرأسمالية اعتمد ماكس قبير على اقتباسات من مؤلفين إثنين لـ Benjamin Franklin، الأول بعنوان **تلميحات ضرورية لمن يريدون أن يكونوا أغنياء** (1736) والثاني بعنوان **نصائح إلى تاجر صغير**(1748).ونذكر من تلك المقتطفات أو الاقتباسات ما يلي: " تذكر بأن الوقت عملة " بمعنى أن ضياع الوقت والكسل والتسلية كلها عوامل تساعد على ضياع المال. " تذكر بأن الثقة رأس مال"، وهذا يعني أن الاشتهار بالصدق والحكمة يشكلان أساس السمعة الحسنة التي تساعد المتميز بها على التعامل مع الآخرين. ولذا يجب على رجل الأعمال أن يكون دقيقا في إنفاقه وصادقا في أقواله وعادلا في كل معاملاته[(14)].

وفي دراسته للعلاقة بين البروتيستانية والرأسمالية، حاول فيبر أن يكتشف إلى أي حد كانت الشروط الاجتماعية في الحضارات الأخرى مناسبة أو غير مناسبة لتنمية النموذج الغربي للرأسمالية وفي نفس الوقت تساءل عما إذا كان المتغير الديني يفسر لماذا لم تتطور الرأسمالية الغربية في مكان آخر خارج الحضارة الغربية.

حسب أطروحة ماكس فيبر، على الرغم من وجود مجموعة من الظواهر الرأسمالية في الحضارات الأخرى فإن الميزة الخاصة للرأسمالية الغربية والمتمثلة في تحقيق الربح الغير محدود والانضباط العقلاني في العمل، جعلها تظهر مرة واحدة في السياق التاريخي لتطور الحضارات. يفهم من هذه الأطروحة أن الأخلاق البروتيستانية هي التي طبعت روح الرأسمالية الغربية الأمر الذي جعلها تختلف عن رأسماليات الحضارات الأخرى. إنما أراد ماكس فيبر أن يوضحه قبل كل شئ هو الصيلة بين تفسير البروتيستانية وبعض أشكال السلوك الاقتصادي(15).

لقد كان اهتمام قبير منصبا على معرفة الحد الذي يمكن للقوى الدينية أن تساهم به في تشكيل وتوسيع روح الرأسمالية في العالم. ويرى أن هذه الروح ليست مجرد وسيلة لجمع المال بل إنها طريقة في الحياة لها أخلاقيات وواجبات والتزامات. ثم ينتقل فيما بعد إلى تحليل ظهور البروتيستانية الزاهدة Calvinism التي يعتقد بأنها سبقت تطور الرأسمالية الغربية وساعدت على تنميتها في القرن السابع عشر.

كما اهتم فيبر بموجهات السلوك التي وضعتها البروتيستانية الزاهدة والتي كانت تهدف إلى ما يلي: يجب أن يكون للإنسان مهنة أو حرفة محددة بدقة يلتزم باتباعها ومواصلة العمل فيها بإخلاص، لأن الله أمر الإنسان بالعمل الجاد الذي يهدف إلى ترقية الفرد و تألقه في المجتمع. فنجاح الإنسان في عمله يعني أنه التزم بما أمر به الله وأن جمعه للمال هو مؤشر على ذلك.

وفي هذا السياق يقول زعيم المنهج النهضوي John wesley، يجب أن يهدف الدين إلى الاقتصاد في الإنفاق وتطوير الصناعة والإنتاج الصناعي الذي يؤدي في النهاية إلي إنتاج الغناء. ويواصل الكاتب حديثه قائلا: إن النصيحة التي يجب أن نوجهها لكل المسيحيين هي جمع وادخار ما يمكن ادخاره من المال محذرا إياهم بألا ينفقوا ثرواتهم علي الألبسة الفاخرة وتبذيرها فيما لا ينفع بل يجب أن ينفقوها فيما يرضى الله. والمقصود من ذلك هو إعادة استمرار الربح في التجارة والصناعة الذي يهدف إلي تراكم رأس المال وجمع أكثر للثروة.ولتحقيق هذا

الغرض هاجمت البروتيستانية الزاهدة تضييع الوقت والكسل والنوم الزائد عن الضرورة وكذا إهدار الوقت في القيل و القال. كما أكدت علي ضرورة إبقاء العلاقات الجنسية في إطار الزواج ومن أجل إنجاب الأطفال فقط، وأوصت بالاعتماد على الغذاء النباتي والاستحمام بالماء البارد والابتعاد عن كل الإغراءات.

كما شجعت ممارسة الرياضة التي تهدف إلى تحسين اللياقة البدنية، أما تلك التي يقصد من ورائها الترفيه والتسلية فهي منبوذة. بالإضافة إلى ذلك حرمت البروتيستانية الزاهدة اللهو في المخامر و الرقص والمسرح والقمار وكل شئ يصرف الإنسان عن عمله.

انطلقا مما سبق ذكره يرى ماكس ڤيبر بأن البروتيستانية الزاهدة كان لها الأثر الواضح والفعال في خلق وتنمية روح الممارسة الرأسمالية، لأنها كانت بمثابة المنهج الأساسي المتبع في ممارسة التجارة الذي يشجع ما يسميه ماكس ڤيبر بالرأسمالية العقلانية فأصبح جمع المال عبارة عن أخلاق دينية وتجارية. وهكذا فإن انتظام الحياة البروتيستانية ساعد بشكل كبير على زيادة الإنتاج الرأسمالي والتخصص في تقسيم العمل.

ولاحظ ڤيبر أن القيود التي فرضت على استهلاك الثروة أدت بالضرورة إلى زيادتها وذلك عن طريق استثمار رأس المال، ويضيف قائلا: بأن الأخلاق البروتستانية المبنية والموجهة على أساس ديني لعبت دورا هاما في تطوير روح الرأسمالية التي وجهت بدورها الممارسة الرأسمالية. إلا أنه لا يدعي بأن الأخلاق البروتستانية هي سبب وجود الرأسمالية بل يرى أن هناك عوامل أخرى ساهمت في ظهورها(16). وفي هذا المجال يقول، البروتيستانية ليست سببا في ظهور الرأسمالية لكنها أحد أسباب بعض مظاهرها(17).

لقد أثارت وجهة نظر ماكس ڤيبر حول العلاقة بين الدين والرأسمالية جدلا حادا بين المفكرين والمؤرخين ووجهت إليها انتقادات كثيرة نذكر منها ما صدر عن عالم الاجتماع Kautsky الذي دافع عن وجهة النظر الماركسية حول

مسألة العلاقة بين الدين والتغير الاجتماعي. وحجته في ذلك هي أن الرأسمالية المبكرة سبقت البروتيستانية، وأن مذهبها الكلفاني تطور في أحضان المدن التجارية التي شهدت الأشكال الأولى للتصنيع. وفي اعتقاده أن البروتيستانية أصبحت فيما بعد تمثل أيديولوجية الرأسماليين التي أضفت على عملهم الشرعية الدينية والقانونية(18).

### 6.الديـن و العلمانيـة في المجتماعـات الغربيـة:

يؤكد الكثير من علماء الاجتماع بأن المجتماعات الغربية تسير نحو العلمانية. وهذا يعني أن تأثير الدين في مجالات الحياة المختلفة يتناقص تدريجيا. ففي حالة إنجلترا وبلاد الغال مثلا تبين الإحصائيات بأن هناك انخفاض تدريجي في إقبال الناس على الكنيسة وعلى ما تقوم به من طقوس دينية، خاصة الأسبوعية منها. فإحصاء 1851 مثلا أوضح بأن نسبة 40٪ فقط من السكان البالغين كانوا يترددون على الكنيسة أسبوعيا. ومع نهاية القرن التاسع عشر انخفضت هذه النسبة إلى 35٪ واستمرت في الانخفاض إلى أن وصلت سنة 1950 إلى 20٪. ومع حلول 1970 نزلت إلى ما بين 12.10٪ فقط وقد أدى ذلك أيضا إلى الانخفاض في نسبة إقامة حفالات الزواج بالكنيسة. مثلا في سنة 1929 وصلت نسبة إجراء طقوس الزواج بالكنيسة إلى 56٪ ثم تراجعت إلى 37٪ سنة 1973. وخلال هذه المدة الزمنية ارتفعت نسبة تسجيل عقود الزواج بالمكاتب الحكومية (البلديات) من 25.7 إلى 47٪.

إن الانخفاض في توجيه الكنيسة للنشاط الديني صاحبه في نفس الوقت انخفاض في عدد الإطارات الدينية. مثلا في سنة 1861.كان هناك رجل دين واحد لكل 960 ساكن في كل من إنجلترا وبلاد الغال. وبعد مرور من قرن من الزمن كان هناك أقل من رجل دين واحد لكل 4000 ساكن. وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى انخفاض ملحوظ في عدد المؤسسات الدينية ولم يكن ذلك مقتصرا على إنجلترا و بلاد الغال بل مس أيضا أغلب بلدان أوربا الغربية.

في تعليقه على هذه الظاهرة يقول الكاتب Brayn Wilson، إن انخفاض دور رجال الدين في المشاركة العملية في الحياة اليومية للناس يشير إلى أن الكنيسة قد فقدت التأثير المباشر على أفكار ونشاطات الإنسان. لكن هذا لا يعني بالضرورة أن الناس قد تخلوا عن معتقداتهم الدينية.

فاستطلاع الرأي العام الوطني في بريطانيا مثلا أوضح بأن نسبة كبيرة من الناس الذين يعتبرون أنفسهم مسيحين يرون بأن الذهاب باستمرار إلى الكنيسة ليس شرطا ضروريا لكل مؤمن بالمسيحية. ومن هنا يمكن القول بأن الانخفاض في عدد المؤسسات الدينية لا يجب أن يؤخذ بأنه مؤشر على انخفاض في الاعتقاد الديني لدى الناس. وفي هذا المجال يقول الكاتب Robert N.Bellah هناك تحول من العبادة الجماعية إلى العبادة الفردية، ومن تفسير العقيدة من طرف رجال الدين إلى تفسيرها من طرف الأفراد.

ومن هنا يمكن القول أيضا أن المجتمعات الغربية لم تتجاوز بعد المرحلة الدينية كما أنها لم تصل بعد إلى المرحلة العلمانية المطلقة، فاستطلاعات الرأي العام خلال العشرين سنة الماضية تشير إلى أن ما بين 80 إلى 90٪ من سكان بريطانيا وما بين 95.90٪ من سكان أمريكا يؤمنون بالله لكن هذه الاستطلاعات لا تعطي أي مؤشر أو دلالة على مدى قوة الاعتقاد الديني عند المؤمنين بالله في كلا البلدين (19).

رغم ما يقال عن فقدان الكنيسة للكثير من وظائفها الدينية والسياسية، ورغم ما يقال عن توجه المجتمعات الغربية نحو العلمانية، فإن الكنيسة لازالت تلعب دورا كبيرا في هذه المجتمعات، كما أن الروح المسيحية لازالت تطبع بطابعها الكثير من ذهنيات الشعوب الغربية، ويتضح ذلك من الممارسات اليومية للكنيسة وأجهزتها التبشيرية على المستويين الداخلي والخارجي.

بالإضافية إلى ذلك هناك بعض الدول الغربية التي تعمل على تدعيم النشاطات الدينية بطريقة مباشرة. ففي ألمانيا مثلا تخصص الحكومة ما يزيد عن

نسبة 10٪ من مدخول الضرائب إلى الكنيسة،وهذه نسبة كبيرة جدا إذا ما قورنت بمداخيل الدول الضعيفة.

وفي إنجلترا حاولت الحكومة في السنوات الأخيرة أن تعيد الاعتبار لدور الكنيسة في التربية الدينية والأخلاقية، خاصة بعد تفشي مرض فقدان المناعة (السيداء) الذي عجز العلم الحديث عن إيجاد علاج له. ومن المعروف أنه من بين الأسباب الرئيسة للإصابة بهذا المرض الخطير تناول المخذارت و ممارسة الجنس بطريق غير شرعية بما في ذلك الشذوذ الجنسي.

ويعتقد المسؤولون البريطانيون، خاصة المحافظون منهم، أنه بإمكان رجال الدين أن يلعبوا دورا هاما في محاربة مثل هذا السلوك المنحرف وبالتالي التقليل من حدة انتشار هذا المرض الفتاك. وفي هذا المجال تنوى الحكومة البريطانية إدخال مادة التربية الدينية والأخلاقية في برامج المؤسسات التعليمية إيمانا منها بأن الوقاية خير من العلاج. وهذا دليل واضح على أن اللائكية والعلمانية لم تجديا نفعا في معالجة بعض المشاكل الأخلاقية التي تعصف بالمجتمعات الغربية، كما يتضح أيضا أن الوازع الديني وحده هو القادر على ردع وضبط النفس البشرية في الكثير من الحالات، خاصة إذا تعلق الأمر بجوانب السلوك الأخلاقي الذي عجز العلم عن إيجاد ضوابط له[*].

**7.الدين و علم اجتماع المعرفة:**

يعتبر علم اجتماع المعرفة من أحداث فروع علم الاجتماع العام وهو لا زال في طريق النمو وقد ساهم في تطويره كلا من كارل ماركس و كارل ما نهايم وذلك بمناقشتهما لمحددات الفكر الاجتماعي وأشكال المعتقدات. كان السؤال المطروح هو: إلى أي حد يمكن الاعتماد على العامل الاقتصادي أو البناء الطبقي في تفسير شكل المعتقدات والمعارف. وحتى الآن لا توجد هناك دراسات إمبيريقية وافية في مجال علم اجتماع المعرفة في حد ذاته، إلا أن هناك نشاط معتبر في بعض فروعه، خاصة علم الاجتماع الأدبي وعلم اجتماع العلوم، إذ اهتم الأول بالكيفية التي تؤثر بها المؤسسات الاجتماعية على أشكال الإنتاج الأدبي أو الروايات

والقصص الأدبية في حين ركز الثاني على الطريقة التي يقرر بها العلماء الحكم على القضايا التي تعتبر كمعارف.

أثارت الماركسية مشكلة علم اجتماع المعرفة بشكل خاص وحاولت أن تجد لها حلولا. في هذا المجال يقول ماركس و أنجلز إن المعرفة حرفت ووجهت وربطت بمصالح طبقية واعية أو غير واعية. ويمكن دراسة هذا الانحراف في المجتمعات القديمة، وفي اعتقادهما أن هذا الانحراف سيختفي في المستقبل وذلك عندما يتشكل المجتمع على أساس لا طبقي.

إلا أن أكثر المحاولات أهمية في تطوير علم اجتماع المعرفة نجدها عند كارل مانهايم في كتابه Ideology and Utopia الذي نشر سنة 1936، و كذلك في مقالاته حول علم اجتماع المعرفة سنة 1952. واجه مانهايم مشكلة علم اجتماع المعرفة بقراءات واسعة في الفلسفة وبمنهجية بارعة لكن مع بعض الافتقار إلى الحقائق الاجتماعية. والسؤال الذي طرحه مانهايم هو: إذا كانت المعرفة هي إنتاج اجتماعي فكيف يمكن أن تكون موضوعية ؟، لأنه إذا لم تكن كذلك فإننا متروكين إلى العدمية. ولتجنب ذلك حاول مانهايم أن يدافع عن الفكرة القائلة بأن المثقفين معزولين عن المجتمع لكونهم مثقفين، وبالتالي فهم خارجين عن البناء الاجتماعي ومتحررين من قيوده، وفي مقابل ذلك فهم مطالبين بدارسة المجتمع دراسة نقدية موضوعية.

بالنسبة لكثير من علماء الاجتماع فإن موضوع علم اجتماع المعرفة ما يزال يستحوذ على الأذهان لكن المشاكل التي طرحها ما زالت غير محلولة ففي كتابه Ideology and Utopia عرف مانهايم علم اجتماع المعرفة بأنه واحد من الفروع الجديدة لعلم الاجتماع، كنظرية إنه يهدف إلى تحليل العلاقة بين المعرفة والوجود، وكبحث تاريخي – سوسيولوجي فإنه يهدف إلى الكشف عن الأشكال التي تأخذها هذه العلاقة في التطور الفكري للجنس البشري[20].

يعتبر عمل كلا من Peter Berger و Thomas Luckmann تطورا هاما في علم الاجتماع الديني الذي يمثل جزءا من مجال واسع وهو علم اجتماع المعرفة الذي

يهتم بمعاني ومفاهيم الواقع التي يحملها أعضاء المجتمع. ومن الواضح أن لكل مجتمع مجموعة من المعارف الخاصة به والتي تميزه عن المجتمعات الأخرى، وهذه المعارف العامة هي من إنتاج المجتمع. ومن جهة أخرى إنها تعيد تغذية المجتمع و تساعده على إعادة إنتاج نفسه.

وحسب Luckmann فالمعنى العام الذي ينتجه المجتمع لا يتضمن فقط مستوى عال من الأفكار الفلسفية حول معنى الحياة ولكن أيضا كل المعرفة اليومية المسلم بها جدلا. فالمعاني العامة تتطلب شرعية مستمرة ودائمة، ولذا فهي تحتاج إلى تدعيم وتبرير متكرر. يجب أن يعرف أعضاء المجتمع أن معانيهم العامة حقيقية وواقعية وصحيحة وشرعية. وبدون هذه المساندة والتشجيع فإن المعاني العامة سوف تتجه نحو الانهيار وبذلك ستصبح الحياة لا معنى لها الأمر الذي يهدد بدوره عدم استقرار المجتمع. فالدين يساعد على المحافظة على بناء وشرعية المعاني العامة التي من خلالها لعب دورا حاسما في المحافظة على الأجناس البشرية.

يقول Berger، الدين هو محاولة جريئة لتصور الكون بكامله كوجود ذو معنى إنساني. وبهذه الطريقة فالإنسان يبني المعرفة و المعنى حول الكون كله ومكانته في هذا الكون. وكمثال على ذلك وجهة نظر المسيحية حول خلق الكون والبشرية في كتاب النشوء ويواصل Berger حديثه قائلا: بأن الدين يعطي الشرعية بصفة فعالية لأنه يربط الواقع الغير مستقر للمجتمعات التي تعتمد على التجربة بالحقيقة المطلقة. وبهذه الطريقة فالمعرفة المكتسبة من الملاحظة والتجربة تُشجع وتُجعل كحقيقة.

فالدين يوفر أجوبة مطلقة لا يمكن أن تكون موضوع شك من طرف المؤمنين. مثلا الناس يلاحظون أن الشمس تبزغ كل صباح، وهذا مشروحا ومؤكدا في بعض المجتمعات بالفكرة القائلة بأن الشمس مراقبة من طرف قوى طبيعية خارقة للعادة. كما أن الدين يعطي الشرعية أيضا للمؤسسات الاجتماعية وذلك من خلال تعيين حدودها داخل إطار مرجعي واسع. ويرى Berger أن كل معنى عام له جذوره في الأساس الاجتماعي، أي البناء الاجتماعي، وإذا تم تدمير

هذا الأساس فسيحدث نفس الشيء بالنسبة للمعنى العام، ولذا لا يمكن لأحدهما أن يوجد في غياب الآخر. ويضيف قائلا، كل حقيقة مشكوك فيها ليس لها أساس مستقر. وتعتبر الأشياء حقيقية، كما تعتبر الحياة ذات معنى لأن الناس أعطوها ذلك المعنى. لكن هذه الحقيقة وهذه المعاني تعسفية لأنه لا يوجد هناك محك أو مقياس عام يمكن على أساسه إثبات هذه الحقيقة أو هذا المعنى. فالحقيقة عند مجتمع ما افتراء عند مجتمع آخر، كما أن الأشياء التي تعتبر ذات معنى في المجتمع **س** هي ليست ذات معنى المجتمع(21).

**الخاتمة:**

إن موضوع العلاقة بين الدين والمجتمع كان ولا يزال محل اهتمام الباحثين في العلوم الاجتماعية بصفة عامة وعلم الاجتماع بصفة خاصة. وفي هذا المقال حاولنا أن نلقي الضوء على بعض جوانب هذه العلاقة انطلاقا من وجهات نظر سوسيولوجية مختلفة.

تناولنا في البداية موضوع الدين من حيث المفهوم و التعريف والوظيفة الاجتماعية والسياسية والإيديولوجية كمدخل عام أوضحنا فيه أن الدين هو نظام عقيدة حول مكانة الفرد والجماعة في هذا العالم، وأن حاجة الناس إليه لا يستطيع العلم إشباعها، وأشرنا إلى أن ما يهم علماء الاجتماع هو الأثر الذي يحدثه الدين في العلاقات الاجتماعية والثقافية والسياسية وحتى الاقتصادية. فالدين كأيديولوجية ليس مستقلا عن هذه العلاقات التي يعمل ضمنها. وفي محاولتنا لتقييم طبيعة هذه العلاقات ثم التطرق إلى كل من وجهتي النظر التطورية والوظيفية بالإضافة إلى وجهة النظر الفيبيرية. فالاتجاه الأول حاول تفسير الظاهرة الدينية إنطلاقا من حاجات الإنسان المادية والروحية بما في ذلك العاطفية والثقافية، ويرى أن تطور الدين مرتبط بتطور حاجة الإنسان.

أما الاتجاه الثاني فقد غير التركيز من الاهتمام بحاجات الإنسان إلى الاهتمام بحاجات المجتمع، فالدين من وجهة النظر الوظيفية يلعب دورا أساسيا في عملية التماسك الاجتماعي التي تعتمد بالدرجة الأولى على وجود قيم دينية مشتركة، وفي غياب تلك القيم تنعدم الرقابة الاجتماعية وينتفي التضامن الاجتماعي. إلا أن الدين لا يقوم في كل الحالات بهذه الوظيفة، كما هو الحال اليوم في كثير من بقاع العالم. أما وجهة النظر الفيبيرية فقد ركزت بالأساس على العلاقة بين الأخلاق البروتيستانية وروح الرأسمالية مبينة أن الديانة البروتيستانية في شكلها الكلفاني ساهمت إلى حد كبير في تنمية روح الرأسمالية الغربية التي كانت أساس هيمنة النموذج الاقتصادي الغربي و أعطته بعدا عالميا.

تناولنا في هذا المقال أيضا مسألة العلاقة بين الدين والعلمانية في المجتمعات الغربية وأخلصنا إلى القول بأنه على الرغم من أن المجتماعات الغربية تسير نحو العلمانية إلا أن الدين لازال يطبع الكثير من ذهنيات شعوبها، وأن هناك عودة صريحة إلى الممارسات الدينية التي يرى فيها البعض من السياسيين التخلص من بعض الإفرازات السلبية للحضارة الغربية، خاصة تلك المتعلقة بالانحرافات الأخلاقية والأمراض الاجتماعية التي لم يستطيع العلم إيجاد حلول لها. وأخيرا تطرقنا إلى إشكالية العلاقة بين الدين وعلم اجتماع المعرفة على اعتبار أن الدين يمثل جزءا من المجال الرحب لهذا الأخير الذي يهتم بمفاهيم ومعاني الواقع الذي يحملها أعضاء المجتمع بما في ذلك المعتقدات والممارسات الدينية.

## ❖ هوامش البحث

(1) Plamenatz, J. **Ideology**. Pall Hall Press, London,1970. p84

(2) Plamenatz, J. Ibid, P.87.

(3) Bocock, R and. Tompson, K. **Religion and Ideology**, Manchester University Press in association with the open University, 1985. p.207.

(4) Heald, R.M. **Sociology :** Themes and Perspectives University Tutorial Press, U. K 1985, pp. 460-2.

(5) Margaret peit. **An Introduction to sociology**, Longma, Essex U.K.1984 p.215.

(6) Haralambos . M. **Sociology** : Themes and Perspectives, University Tutorial Press, U. K 1985, p.454.

(7) Raymond Aron, Main **Currents in sociological** Thougth2, Penguin Books, 1977, pp. 55-56.

(8) Hanalambos, M. Op. Cit, p.457.

(9) Giddens, A. Durkheim : **Selected Writings**, Cambridge University Press, 1979, pp. 246-4

(10) Ragmond Aron. Op. Cit. p.61

(11) Haralambos, M. Op. Cit. p.457

(12) Haralambos, M. Op. Cit. p.458

(13) Parsons , T. **Essays in Sociological Theory**, The Macmillan Company, London, 1954, p 197.

(14) Max Weber, **The Protestant ethic and The Spirit of , Capitatism**, George Allen and Union, London, 1976, p.48.

(15) Raymord Aron. Op. Cit. pp. 221-5

(16) Haralambos, M. Op. Cit. p. 467.

(17) John Lewis. Max Weber and Value-free Sociology Lawrence and Wishart, London, 1975, p. 69.

(*) هذه المعلومات مستقاة من مناقشتنا مع بعض الزملاء الألمان والإنجليز الذين كنت أدرس معهم في جامعة ليدز Leeds ببريطانيا وذلك في أواخر الثمانينيات وبداية التسعينيات من القرن الماضي.

(18) Haralambos, M. Op. Cit . p.467

(19) Haralambos, M. Op. Cit . pp. 473-4

(20) Mannheim, M. **Ideology and Utopia**, Routledge and Kegan, Press, London , 1979, p. 237.

(21) Harolambos, M. Op. Cit . p.464.